الفصل السادس

المعجزة الحضارية

obeikandl.com

obeikandl.com

طور للعرب متحضر جديد

كان العرب - فى الجاهلية - يعيشون فى طور البداوة قبائل متعددة ، حتى فى مدنهم التجارية مثل مكة والزراعية مثل المدينة ومدن اليمن والحيرة. ووراء المدن كان يعيش العرب فى تهامة ونجد وبوادى الشام والعراق وجنوب الجزيرة على الأغنام والأنعام، وكانت الصحراء تحميهم وتحرس تقاليدهم، وكانوا يتنافسون داخل الجزيرة على آبار الماء والمراعى، فاستحالت حياتهم حربية، واتخذت قبائلهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم. وكانت معارفهم محدودة، فهى معارف أولية ساذجة، وكانت أنسابهم أهم معارفهم. وكانت القبيلة تتألف من ثلاث طبقات: أبناؤها وهم قوامها ، والعبيد وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة، والموالى وهم عتقاؤها، وكانوا ينفون عنهم من تكثر جناياتهم، ومنهم طائفة الصعاليك التى تعيش للنهب وقطع الطرق. وكانوا يتمدحون ويفتخرون بالشجاعة بحكم حروبهم المستمرة وبالأنفة وإباء الضيم والهوان وكان يشيع بينهم شرب الخمر والقمار واستباحة النساء.

ونقل الإسلام العرب فى جزيرتهم من حياة التجمع فى عشائر متفرقة متنابذة إلى حياة أمة يتضامن أفرادها فى شريعتها وأوامرها ونواهيها ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[1] ، وكان الرسول والخلفاء من بعده يتشاورن مع الصحابة فى الأمور المتصلة بمصلحة الأمة، وجعل الله للشورى فى الأمة

---

(١) سورة الشورى الآية ٣٨.

ووجوبها سورة في القرآن حث فيها على الأخذ بالشورى بين الصحابة، وكان ينبغي أن ينميها المسلمون على مر العصور حتى لا نحتاج إلى تطبيق نظام غربي لها في عصرنا الحديث.

وكما شدد القرآن في الأخذ بالشورى في مصالح الأمة شدد في الأخذ بالإجماع في الرأي بحيث إذا اتفقت الأمة على رأي أخذت به، وأحاديث كثيرة تؤيد عصمة الأمة إذا أجمعت على رأي، من قول الرسول - ﷺ - يد الله مع الجماعة ولا تجتمع أمتي على ضلالة. وإجماع المسلمين يكون في أمور كثيرة ترتبط بحفظ الدين والنفس والعقل والذرية والمال. وحفظ الدين هو المحافظة على الشريعة وفروضها، وحفظ النفس هو المحافظة على كرامة الإنسان وحريته في الفعل والقول، وحفظ العقل هو المحافظة عليه من كل ما يضرُّه مثل الخمر والقمار، وحفظ النسل هو المحافظة على إطعامه وتربيته تربية سليمة، وحفظ المال هو المحافظة على حسن التصرف في إنفاقه. وبهذين الركنين في حياة الأمم المتحضرة: ركن شورى الأمة وركن إجماع أفرادها دخل العرب في عصر متحضر جديد، وستُضَمُّ إليهما أركان حضارية كثيرة.

في حياة الأسرة وأركانها الحضارية

أدخل الإسلام في حياة الأسرة المسلمة أركانا حضارية متعددة ، وأول ركن حضاري طلبه من المسلم - كما في سورة الإسراء - الإحسان إلى الوالدين يقول الله:

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1]

والله فى الآيتين يأمرنا ألاَّ نعبد سواه وأن نبرَّ الوالدين فلا نقول لأحدهما أو كليهما أف ضجرا ولا ننهرهما بل نقول لهما قولا جميلا ونتذلل لهما رحمة بهما وندعو الله أن يشملهما برحمته كما شملهما برحمته فى تربيته. والله يقرن الإحسان إلى الوالدين بعبادته حتى يرعاهما الأبناء ويوفوهما حقوقهما، وأوصى الله والرسول الأبناء بأمهاتهم اللائى حملنهم وهنا على وهن، وأرضعنهم حتى انفصلوا منهن ويقول الرسول " إن الجنة تحت أقدام الأمهات"، وهو ركن حضارى عظيم فى الإسلام، ويجيز الله فى أوائل سورة النساء للمسلم أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع لضرورات قد تحدث ثم يقول: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾[2] تكتفون بها ويتلطف الله فيجعل العلاقة بين الزوجين (الأب والأم) - كما فى سورة الروم - ألفة وأنساً بعد أن كان بينهما وحشة قبل الزواج، وبمجرد حدوثه يصبحان متوادين متراحمين.

وتتوالى التعاليم فى سورة النساء، ويودع الله فيها وثيقة الميراث وما لأفراد الأسرة فيها من فروض وحقوق فى إرث المتوفى. وكانوا يعدون زوجة المتوفى مثل متاعه تورث، وإن شاء أحدهم تزوجها، وإن تزوجها أحد من أسرته تزوجها دون صداق أو زوجها وارثها وأخذ الصداق لنفسه، فحرَّم الله أن

---

(١) سورة الإسراء الآيتان ٢٣ ، ٢٤.

(٢) سورة النساء الآية ٣.

تورث تحريما باتا حفظا لكرامتها، ويأمر الأزواج أن يرفقوا بزوجاتهم، يقول: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾[1] أى لا تضروهن فى العشرة لغرض من الأغراض، كان يتنازلن لهم عن بعض صداقهن أو بعض أموالهن، ويقول عقب هذا الأمر: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ معاشرة رفيقة، ويتلطف إلى الأزواج الكارهين لزوجاتهم والمصممين على فراقهن قائلا ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فلا تفارقوهن ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أى فاصبروا على معاشرتهن فلعل فيما تكرهونه خيرا كثيرا، وإذا فارقتموهن وآتيتم إحداهن قنطارا من المال صداقا لها فلا تأخذوا منه شيئا بل تنازلوا عنه، ويقول الله كيف تأخذونه وكنتم تخلون بهن، وكان بينكم وبينهن عقد وثيق. ويحرم زواج الابن بامرأة أبيه بعد وفاته، ثم يودع السورة وثيقة كبيرة بمن يحرم على الرجل الزواج بهن من قريباته ومن المرضعات لهم وبناتهن وأمهات زوجاتهم وزوجات أبنائهم وأخوات زوجاتهن، ثم يقول: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾[2] أى كراهتهن للأزواج وعصيانهن ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بكلام يلين قلوبهن النافرة ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا﴾ وعاشروهن بالمعروف، ويقول الله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أى إن تفاقم النفور بين الزوجين ﴿فَابْعَثُوا﴾ إليهما ﴿حَكَمًا﴾ رشيدا من أهله ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾[3] ليصلحا الأمر بينهما وعودة العلاقة الطيبة.

ويعرض الله فى سورة البقرة الطلاق بالآيات من ٢٢٦ إلى ٢٤٢ ويستهلها بمن يحلفون على زوجاتهم ألاّ يقربوهن، ويأمرهن أن ينتظرن أربعة أشهر، فإن

---

(١) سورة النساء الآية ١٩.

(٢) سورة النساء الآية ٣٤.

(٣) سورة النساء الآية ٣٥.

رجع الأزواج فيهن فبها وعليهم كفارة اليمين. وإلا وجب الطلاق حتى لا يتمادى الرجل فى تعذيب زوجته، وتتعاقب أحكام الطلاق وعدَّة المرأة بعد الطلاق وبعد وفاة زوجها وما يجب لها من الإنفاق عليها فى مدة العدة. ويفرد الله للطلاق سورة يذكر فيها عدتها وقضاء مدتها بمنزلها والإمساك بها أو طلاقها بمعروف وإشهاد عدلين على الطلاق وحكم اليائسات من الحمل اللائى لم يبلغن سنَّه والعدة لهن وللحاملات والإنفاق فيها عليهن والمسكن وما يجب على الزوج من أجر الرضاعة.

وبذلك يكون الله قد أحاط حياة الأسرة بسياج حضارى فى رعاية الأبوين وما ينبغى أن يكون بين الزوج والزوجة من الأنس والمودة، وتؤكد آيات الميراث ما بين الأهل من فروض بر، ويطلب الله من الأزواج لزوجاتهم الرفق وحسن المعاشرة حتى لو حدثت بينهما كراهية فواجب أن يتحملاها، وإذا خفتم الشقاق والنفور بينهما فابعثوا لهما حكمين رشيدين من أهله وأهلها، ويعلن الرسول فى حديث أن " أبغض الحلال إلى الله الطلاق" رواه أبو داود فى السنن، وعنى الله بإيراد أحكامه حفظا وصيانة لكرامة المرأة.

ويقول الله: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾(١) وبذلك يسوى بين الرجل والمرأة فيما اكتسباه لأنفسهما من المال ، ويتبع هذه المساواة أن تستقل المرأة عن زوجها اقتصاديا، فتكون لها ثروتها الخاصة، ولها أن تشترى وتبيع وتهب وتتجر وأن ترفع إلى القضاء خصوماتها دون أخذ الإذن فى كل ذلك من زوجها، ولهذه الحقوق المكفولة للمرأة فى الإسلام كانت لا تفقد اسم أبيها وأسرتها فى الزواج ولا يضاف اسم زوجها إليها مثل الغرب.

---

(١) سورة النساء الآية ٣٢.

ويوصى الله - فى أوائل سورة النساء - كفلاء اليتامى فى الأسرة بأن يستثمروا أموالهم ويدفعوها لهم إذا بلغوا سن الرشد، ولا يأكلوا شيئا منها ظلما فإن آكل مال اليتيم إنما يأكل فى بطنه نارا ويعذبه الله أشد العذاب. ويدعو الله فى القرآن مرارا إلى إكرام اليتيم وحسن معاملته وبره لانكسار خاطره لوفاة أبيه. وكما يوصى الله باليتيم يوصى بالأرحام قائلا: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾[1] والأرحام جمع رحم وهو مستقر الولد فى بطن أمه ، وسميت به القرابة فى مثل قولهم: وصلتك رحم أى قرابة، وقول الله ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ أى أن الله أوجبها على المسلم فى كتابه حتى يصل أقاربه وذوى رحمه.

من واجبات الإسلام الحضارية

الإخاء الصادق بين المسلمين كما قال جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[2] فمن واجب المسلم أن يستشعره وأن يعرف أن بينه وبين غيره من المسلمين واجبات وحقوقا ملزمة مثل حقوق الإخاء الحقيقى بين الأشقاء، إذ يربط بينهما نسب الإسلام كالنسب فى الأبوة، ويقول الرسول: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (رواه مسلم) فالأمة الإسلامية جميعها بنيان واحد مترابط يشده هذا الإخاء الوثيق فلا يتداعى ولا يسقط منه شىء، ويضرب الرسول ﷺ - مثلا لما ينبغى أن يكون عليه الإخاء من التعاون والتآزر بين أفراد الأمة قائلا:

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٠.

"مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (رواه البخارى).

وصور الرسول حقوق المسلم على أخيه المسلم قائلا: حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس بقول: يرحمك الله (رواه البخارى ومسلم)٠ وفى رد السلام يقول الله: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[1] وهى تحية حضارية مثل بقية الحقوق المذكورة وفى عيادة المريض يقول الرسول: (إن المسلم إذا عاد أخاه أى فى المرض) لم يزل فى جَنا الجنة أى فى ثوابها (رواه مسلم)٠ وكان يدعو الصحابة إلى السير فى الجنائز مؤازرة لأهل الميت ، كما كان يدعو إلى إجابة الداعى مهما كان الداعى فقيرا٠ وكان يوصى المسلم أن يلقى أخاه بوجه طلق وبالبشر، ويقول: الكلمة الطيبة صدقة (رواه البخارى)٠ وكان لا يزال يوثق الصلات الاجتماعية بين المسلمين، ومن قوله فى ذلك: "من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة (غمًّا) فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة" (رواه مسلم)٠ وهى مكافئات كبرى تدفع كل مسلم لأداء ما ينبغى عليه لأخيه المسلم من تآزر وتعاون حميد٠

المساواة

هى المساواة التامة بين المسلمين فى أقطار العالم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، والمسلمون جميعا متساوون أمام الله، لا يتوسط بينه وبينهم كهنوت من قساوسة ورهبان وأساقفة، وهم متساوون فى مجتمعاتهم دون أى

---

(١) سورة النساء الآية ٨٦.

تمايز أو طبقات مثل الهند ومثل ما كان فى إيران قبل الإسلام، فلا حر وعبد ولا سيد ومسود ولا عصبية ولا قومية ولا جنسية ولا طبقية، إنما هى هويّة واحدة، هى هوية الإسلام التى تشمل جميع الأجناس والألوان والقوميات. ويقول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[1] لا لتتنافروا وتتفاخروا بالآباء والأنساب ويقول الرسول فى خطبته بحجة الوداع: "أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ولا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأعجمى على عربى، ولا فضل لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى". وبذلك ألغى الإسلام - لأول مرة - فى التاريخ الجنسية والعنصرية والقومية واللون والعصبية.

وكان الرسول يستشعر هذه المساواة بينه وبين المسلمين إلى أقصى حد، فلا شعور بأى هالة قدسية من نبوة ورسالة، ولا شعور بسلطة زمنية من سلطان أو ملك، وكان ينهى الصحابة عن المبالغة فى الثناء عليه حتى لا يقعوا فيما وقع فيه النصارى من تأليه عيسى وقولهم إنه ابن الله، وكان يقول إنما أنا بشر وعبد من عباد الله آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد. ولاحظ يوما أن شخصا وقف بين يديه فأخذته رعدة شديدة، فبادره قائلا: هون عليك فإني لست بملك ولا جبار إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد وهو ما قطع من اللحم ومُلِّح وجُفِّف فى الشمس. وحمل الحجارة فى بناء مسجده حتى لا يتميز عن العمال، وبالمثل شارك فى حفر الخندق مع العمال بغزوة الأحزاب، وكان يجالس أصحابه من الفقراء والمساكين ويؤاكلهم ويعود مرضاهم. واقتدى به المسلمون فى استشعار المساواة واتخذوها مبدأ جماعيا ملزما

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

لهم فى كل مجتمع لهم شرقا وغربا، فلا جنسية ولا عنصرية ولا عصبية، بل دائما استشعار لمساواة تامة كاملة.

الزكـــاة

واجب مهم فى شريعة الأمة الإسلامية هو الزكاة، وقد جعلها الإسلام فرضا ملزما على كل مسلم بالغ أن يؤدى لفقراء الأمة من ماله سنويا حقا واجب الأداء، وقد وضع له الإسلام نظاما ثابتا خالدا، هو العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع دون مئونة ونفقة، ونصف العشر فى حصيدة الأرض التى تزرع بالآلات، وربع العشر فى رءوس الأموال وعروض التجارة. والإسلام بذلك يربط بين أفراد الأمة الإسلامية بعدالة اجتماعية لم يفرضها أى دين على أتباعه، فالمسلم لا يسعى فى الدنيا لنفسه وأسرته فحسب، بل يسعى فيها أيضا لأداء الفرض المالى الذى فرضه الله للفقير والفقراء فى أمته، وجعله الله فرضا دينيا، يجْزَىُ عليه المسلم جزاء عظيما يوم القيامة، وجعل الله زكاة المسلم قرضا وسلفة يقدمها إلى ربه قائلا: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾[1]، والقرض: السلف، والله يجازى عليه بضعفه فى الآخرة، ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ ﴾ أى يقبض بيده الزكاة، وهو شرف عظيم لمقرض المال ﴿ وَيَبْصُۜطُ ﴾ أى يتوسع فى الجزاء لمن يقرض ماله. ولما تلا الرسول الآية على الصحابة تعرض له أبو الدحداح الأنصارى قائلا: أو يريد الله منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح فقال له: أرنى يدك، فناوله يده، فقال: إنى قد أقرضت ربى - عز وجل - حائطى أى بستانى، وكان به ستمائة نخلة، فبشره الرسول بالجنة قائلا: كم من عذق (سباطة) ضخم ودار فساح (واسعة) فى الجنة لأبى

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٥.

الدحداح. وكان أبو بكر خليفة رسول الله مصيبا حين رأى قتال ما نعى الزكاة من العرب بعد انتقال الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى إذ رأى فى ذلك نقضا لفريضة من فرائض الإسلام، وراجعه عمر بن الخطاب فى عزمه على قتالهم قائلا كيف نقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، فرد أبو بكر عليه قائلا: أليس قال إلا بحقها، فإن الزكاة حق المال وجعلهم أبو بكر مرتدين عن الإسلام، ونشبت حروب الردة، وانتصر أبو بكر، وهى فخر عظيم له.

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

فيه يقول الله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[1]. والله يقول إن الأمة الإسلامية خير الأمم لما أخذت به نفسها من الأمر المستمر بالمعروف وهو العمل الطيب الحسن الذى تدعو إليه الأمة وتحث عليه، كما يحث عليه أفرادها، وهو مديح من الله للمسلمين لا يماثله مديح إذ امتثلوا الإسلام وأقاموه على خير وجوهه، واتحدوا فى إقامته كما اتحدوا فى الدفاع عنه والنهى عن المنكر. وحتى لا يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فوضى وُكلا إلى أولى الأمر واتخذوا له منذ خلافة عمر بن الخطاب نظاما سموه نظام الحسبة لمراقبة الأسواق والأسعار، وكان يتولاه فى كل بلد عربى فقيه صلب، وكان له فى البلاد الكبيرة مساعدون من الفقهاء، وكان الرسول يقول: لا تحقرنَّ من المعروف شيئا، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط (رواه البخارى) وفى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠.

رواية: ولو بكلمة طيبة، وكان يقول: مَنْ رأى منكم منكرا فَلْيغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه (رواه مسلم).

فعل الخير

يقول الله: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾(1) والله يقول إن كل ما يقدمه المسلم من خير كثير أو قليل لن يضيع ثوابه، بل سيجده يوم القيامة عند الله أعظم ثوابا وأجرا، ونوَّه الرسول بأن عمل المسلم لمعاش أسرته فى أى زراعة أو صناعة أو تجارة يثاب عليه ثوابا كبيرا وكان الرسول يقول ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أُكل منه له صدقة، وما سُرِق منه له صدقة ولا يرزؤه لا ينقص منه أحد إلا كان له صدقة (رواه مسلم) وفى رواية ثانية لمسلم: لا يغرس المسلم غرسا فلا أكل منه إنسان ولا دابة ولا طير إلا كان له صدقة. ويردد الرسول أن من يقطع شجرة تؤذى الطريق جزاؤه الجنة، ومثله من رفع غصن شوك عن الطريق فإن الله يشكره ويغفر له، وكان بعض الصحابة يتحرج من إعطاء الفقير أو المسكين شيئا قليلا مثل قطعة من خبز أو تمرة من البلح أو تمرتين فنزلت آية سورة الزلزلة قائلة للمسلمين: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾(2) أى وزن أصغر شىء فإن لذلك أجرا عند الله، وكان يكرر للصحابة اتقوا النار ولو بشق (بنصف) تمرة ومن خطابه لنساء المسلمين: "يا معشر نساء المؤمنين لا تحقرن جارة ما تعطيه لجارتها الفقيرة، ولو فِرسِن شاة أى حافرها ، فينبغى أن تجود على جارتها بما تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاة. وقد يكون الجزاء لفعل الخير عاجلا فى الدنيا ويصور ذلك حديث الغار والصخرة الذى روى عن رسول الله إذ قال إن ثلاثة من الرجال

---

(1) سورة المزمل الآية ٢٠.
(2) سورة الزلزلة الآية ٧.

ناموا ذات ليلة معا فى غار، فلما أصبحوا وجدوا صخرة انحدرت من الجبل وسدَّت باب الغار، فقال بعضهم لبعض: لا ينجينا من ذلك إلا دعاء الله بصالح أعمالنا، فذكر أولهم أنه كان له أبوان كبيران، وكان يحلب لهما من أغنامه فى كل مساء لبنا، وتأخر يوما عنهما فناما، فظل بجوارهما والقدح على يده حتى هلَّت تباشير الفجر، فاستيقظ أبواه وشربا اللبن، واتجه إلى ربه يقول له: إنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرِّج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة قليلا. وذكر الثانى أنه كان يحب ابنة عمٍّ له، وأرادها على نفسها فأبت إباء شديدا، وانتهز فرصة حاجتها للمال، فقدم لها المال على ما أراد منها، ولما هم برغبته قالت له: اتق الله، فانصرف عنها فترك المال، ودعا ربه قائلا إنى صنعت ذلك ابتغاء وجهك، وسأله أن يفرج عنهم ما هم فيه، فانفرجت الصخرة قليلا. وذكر الثالث أنه كان استأجر عُمَّالا فى أداء عمل وأدوه، وغاب منهم عامل فثمَّر له أجره، وظل يثمره سنوات حتى استحال إبلا وبقرا وغنما. وجاءه العامل يسأله أجره، فقال له: إنى ثمرت مالك، وقدم له غنمه وبقره وإبله فاستاقها جميعا. واتجه إلى ربه داعيا إنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك، وسأله أن يفرج عنهم ما هم فيه، فانفرجت الصخرة نهائيا. والحديث رواه البخارى ومسلم ولم أروه بلفظه لطوله، وهو يصور انتفاع المسلم بأعماله الخيرة وأنه إذا توسل بها فى شدة إلى ربه استجاب له وفرجها عنه.

العقلانية والاجتهاد

يعرض الله فى القرآن إبداع خلقه للسموات بكواكبها ونجومها وخلقه للأرض بجبالها وبحارها وأنهارها واختلاف الليل والنهار ظلمة وضياء وما ينزل فيها من السماء من الأمطار فيحيى به الأرض بعد جدبها وما بث فيها من الدواب وتصريفه للرياح والسحاب والفلك الحاملة للناس ومنافعهم فى التجارة،

ودائما يعقب – جلّ شأنه – على ذلك وأمثاله بأن فيه آيات ودلائل بصيرة لعقل الإنسان تشهد بأن وراءها قدرة باهرة لخالق الكون، وما أودعه فيه من نظم محكمة وسنن مطردة، وتتكرر فى القرآن الدعوة إلى الاحتكام إلى العقل فى تدبر ملكوت السماء والأرض وأن له خالقا يدبره ويبث فيه النظم والقوانين المحكمة، والإسلام بذلك دين عقلانى يريد لأتباعه أن يفزعوا إلى عقولهم التى مَّيز بها الناس من جميع الموجودات والكائنات فى الكون والتى تهديهم إلى معرفة أن للكون إلها عظيما، وينعى الله على المشركين أنهم فقدوا عقولهم وحواسهم التى تدفعهم إلى الإيمان به وبوحدانيته وقدرته العجيبة فى خلق الكون، قائلا: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1] والقلوب فى الآية العقول، وقد عطلوها فلم تعد تفهم أو تدرك شيئا، وعطلوا حواسهم فلم تعد تبصر ولا تسمع شيئا، وكأنهم عُمْى وصُمّ، فهم كالأنعام من الإبل والبقر والغنم، بل هم أضلّ منها لغفلتهم وجهالتهم إذ حجبوا عقولهم عن التأمل فى الكون وأن له إلها عظيما أوجده ودبره ونظمه، ومن تمام عقلانية الإسلام أن الله يأمر الرسول بدعوة الناس إليه عن طرق ثلاثة هى الحكمة أى البراهين العقلية والعظة القصصية والجدل العقلى الدقيق قائلا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[2] والله يأمر الرسول فى دعوته الناس أن يستخدم الحكمة أى البراهين العقلية كقوله فى البرهنة ... على وحدانيته بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[3]

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٣) سورة المؤمنون الآية ٩١.

والآية تبرهن على نَفْى الشريك لله بأنه لو كان معه آلهة لانفرد كل إله بما خلق وتصرف فيه وحده دون شركائه من الآلهة ولتحاربوا وغلب بعضهم على بعض وفسد نظام الكون. ويأمر الله رسوله أن يستخدم فى دعوته الموعظة الحسنة التى تلين قلوبهم، وقد كرر فى القرآن ما حدث للأمم المكذبة لرسلها من الدمار والهلاك، وعظا للكفار وأهل الكتاب، ويطلب إلى الرسول أن يجادل قومه بالكلام الطيب الذى يقنعهم ويدفعهم إلى الإيمان بالله واعتناق دينه الحنيف.

وهذه العقلانية فى أحكام الدين يسندها الاجتهاد، وهو بذل المسلم وسعه فى طلب العلم بأحكام الشريعة فيما لم يأت فيه نص من قرآن أو سنة أو إجماع قطعى مثل الصلوات الخمس، ويدل على مشروعيته فى الإسلام حديث معاذ بن جبل حين بعثه الرسول إلى اليمن، فقد سأله بم تقضى بين الناس؟ فأجابه بكتاب الله، فقال فإن لم تجد، قال أقضى بما قضى به رسول الله قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيى أى لا أقصر قال: الحمد لله الذى وفق رسولُ رسول الله لما يرضى رسوله (رواه الآمدى فى كتابه الإحكام). وأخذ الصحابة يجتهدون فيما يعرض عليهم من أحكام الشريعة وليس فيه نص من كتاب أى قرآن أو سنة أو إجماع للصحابة، واشتهر عمر بن الخطاب بأنه كان أكثرهم اجتهادا فى أحكام الدين أثناء خلافته، فقد كان الرسول يعطى الزكاة للمؤلفة قلوبهم من أشراف العرب فمنع عمر ذلك قائلا إن الله أعز الإسلام وأغنى عنهم، ومنع زواج المتعة مدة محدودة لما قد يجر من المفاسد، وأحدث صلاة التراويح فى شهر رمضان، وأبطل قطع يد السارق فى عام كان به مجاعة، إلى غير ذلك من اجتهاداته. وتوزع الصحابة بعد الفتوح فى الأوطان الإسلامية وظهر بينهم مجتهدون متعددون، وخلفهم فى العصور التالية مجتهدون كثيرون فى كل

قطر، ولم يكن أحد منهم فى أى بلد إسلامى يتعصب لرأيه وكأنهم كانوا يعتدون جميعا بقول رسول الله: اختلاف أمتى رحمة، وبذلك حفظت الشريعة، يقول الشهرستانى فى كتابه " المِلل والنحل": " نعلم قطعا ويقينا أن الحوادث والوقائع فى العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعدّ، ونعلم قطعا أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك، والنصوص (أى القرآن والحديث) إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية، وكان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى علم قطعا أن الاجتهاد واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد. وشاع الاجتهاد وعمل به فقهاء الأمة حتى تكونت عند أهل السنة المذاهب الأربعة فى القرنين الثانى والثالث: مذاهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل: وشاع فى كل مذهب أئمة مجتهدون، حتى عصر السيوطى فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى. ويقول الله فى سورة الحج: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1] لا تطيقونه، وهى وقوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[2] يفتحان أبواب الاجتهاد فى الشريعة على مصاريعها تيسيرا إلهيا رائعا. واتفق فقهاء الأمة على جعله الأصل الرابع فى أصول الشريعة الإسلامية فيما لم يرد فيه نص فى القرآن والسنة وما لم يرد فيه إجماع بين المسلمين.

العـــدل

يأمر الله رسوله والمسلمين بالعدل الذى جعله قانونا وجوهرا ثابتا فى خلقه وفى الحياة، فإنه وفّى كل الكائنات عدالة تامة فى الخلق وإحكام قيامها فى وظيفتها، ويكفى أن ننظر فى الكف الموصول بأيدينا فإنه لم يخلقه دون أصابع

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥.

مثل خَفِّ البعير، ولا جعل الأصابع ذات قدر واحد، بل جعلها متفاوتة فى القدر حتى ينتفع بها الإنسان فى الإمساك بالأشياء والقبض عليها، مما يدل على أن صورة الكف فى الخلق مقدرة لها تقديرا دقيقا قدرَّتها لها إرادة الله وحكمته فى الخلق فكل شىء فى الكونُ قدِّرت له هيأته تقديرا محكما.

والله يأمر المسلم أن يكون عادلا من جميع الوجوه، فى ذاته فلا يعرضها للهلاك ولا لأى شىء يضرها، وفى عبادة ربه فلا يقصر فيها ولا يجعلها كل حياته ليل نهار فإن ذلك لا يرضى ربه، إنما يرضيه التوسط فى عبادته ورفق المسلم فيها بنفسه فإن لنفسه عليه حقا، وحقها ألاَّ يقسو عليها ويكلفها فى عبادة الله عناءً أو مشقة وينبغى أن يكون عادلا فى معاشرة زوجته. فيؤدى لها حقوقها، وفى معاشرة أبنائه فلا يميز منهم ابنا على إخوته فى مال يعطيه له أو فى معاملة، وفى معاشرة أقاربه فيكون بارا بهم جميعا، بل ينبغى أن يكون عادلا فى التعامل مع الناس جميعا حتى مع الأعداء كما يقول الله فى سورة المائدة: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1] والشنآن: شدة البغض ومعه فى الأمة الإسلامية وفى الأمم الأجنبية يأمرنا الله بالعدل فى المعاملة والإنصاف فى جميع أمورنا ومعاملاتنا لا فى البيع والشراء فقط بل فى كل العلاقات القضائية بين الأفراد وبين الفرد وحكومته وبين الدول ذات السيادة، وهو باختصار إعطاء كل صاحب حق حقه.

وهو الأساس الواجب الانصياع له فى القضاء والمصالحات بإيصال الحق إلى أصحابه، وفيه يقول الله فى سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾[2] الذى لا تصلح حياة الأمم والأفراد بدونه إذ يصبح كل

---

(١) سورة المائدة الآية ٨.

(٢) سورة النساء الآية ٥٨.

من له حق آمنا على حقه طالما كان حاكم الأمة عادلا، أما إن كان ظالما فإن حياة الأمُة تصبح فوضى، وتغيب عن الناس الثقة فى الحاكم الباغى الذى يقوم حكمه على البطش والقهر للناس. ويروى أن إمبراطور بيزنطة أرسل مع شخص هدية إلى عمر بن الخطاب، وهو خليفة، فلما دخل المدينة وسأل عن داره دلُوه عليها، وعجب إذ وجدها دَارا صغيرة عليها باب قديم، وكان يظنها قصرا، ولم يجده، وقيل له إنه خرج إلى السوق، ومضى يبحث عنه، فوجده نائما فى ظل حائط ، ولا حرس، فقال لمن حوله مشيرا إليه: " عدلت فأمنت، فنمت حيث شئت، وحكامنا ظلموا، فاحتاجوا إلى الحراس يحرسونهم ويحمونهم. وبدون ريب إشاعة الحاكم العدل فى الأمة يشيع فيها الأمن والطمأنينة ويعصمها من الخوف والثورة عليه، ونوَّه الرسول بالحاكم العادل مرارا وتكرارا، وقال إنه واحد من سبعة يظلهم الله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله".

الصـــدقة

هى ما يخرجه المسلم من ماله أو زرعه ابتغاء مرضاة ربه، مما سوى الزكاة إما فى سبيل الله لحرب أعداء الأمة وجهادهم، وإما للمحتاجين من أفراد الشعب. ويأمر الله المتصدقين من المسلمين أن يكون ما يتصدقون به من خيار زروعهم وثمارها وخيار أموالهم المتجرين بها قائلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾[1] ويحذر المتصدق أن يتصدق بشىء من خبيث ماله أو ردىء زروعه قائلا: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، وإذا كانت الصدقة طعاما وجب أن تكون من نفس طعام أسرته.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٧.

وكان الرسول يحث عليها الصحابة ويقول إنها وقاية من النار مهما كانت قليلة، حتى لو كانت بنصف تمرة، وقالت له السيدة عائشة يوما جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين، فأعطيتها ثلاث تمرات، فأعطت كل بنت تمرة، ورفعت تمرة لتأكلها فلاحظت أن ابنتيها استطعمتا تمرتيهما، فشقت التمرة التى تريد أن تأكلها بينهما فأعجبنى شأنها فقال لها إن الله قد أوجب لها بالتمرة التى شقتها الجنةَ وأعتقها بها من النار. وسأله رجل أى الصدقة أعظم أجرا؟ فقال أن تتصدق بها وأنت سليم شحيح بالمال تخشى الفقر لقلة مالك، ومع ذلك تؤثر به الفقير. ويقول الله: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ ﴾[1] وكان المتصدق يخشى إن هو أظهر صدقته وأعلن عنها أن يكون ذلك رياء فأجازته الآية وطمأنته، وفُضِّلَتْ على الصدقة المعلنة صدقة السر حفاظا على شعور الفقير ويقول الرسول إن المتصدق سرا حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله.

ويذكر الله من تصرف لهم الصدقات قائلا: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ ﴾[2]، وهم ثمانية.

والفقير من لا يملك شيئا والمسكين شديد الفقر حتى السؤال فيه، والعاملون عليها أى الساعون فى جمعها، وكانت الدولة تفرض لهم من مال الصدقات حظا منه، ولم يعد هذا المصرف قائما، ومثله مصرف المؤلفة قلوبهم من سادات

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧١.

(٢) سورة التوبة الآية ٦٠.

قريش والعرب أشار عمر بإلغائه بخلافة أبى بكر قائلا إن الله أعز الإسلام وأغناه عن تألف هؤلاء السادة، فوافقه أبو بكر وألغاه. ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ أى فى تحرير رقاب العبيد، ولم يعد هذا المصرف قائما ﴿ وَٱلْغَـٰرِمِينَ ﴾ وهم المدينون العاجزون عن أداء ما عليهم من الديون ﴿ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أى فى حرب أعداء الله وما يحتاج إليه المجاهدون من الأسلحة ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو الغريب المسافر المحتاج إلى المأوى والطعام.

الحرية الدينية

مما يميز الإسلام من الديانات السماوية أخذه بقانون الحرية فى الدين فلا يلزم به أحداً قهرا، بل تترك لكل إنسان حريته فيما اختار لنفسه من الدين عملا بقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[1] وهو بذلك يحرم على المسلمين تحريما باتا أن يدخلوا فى الإسلام أحدا كرها أو إكراها، وكان الرسول – ﷺ – يحرص على إسلام أهل مكة، فعاتبه الله على هذا الحرص قائلا: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[2] فليس من حقك إكراههم على الإسلام سواء منهم من كان نصرانيا أو يهوديا أو حتى وثنيا من أهل مكة، فدع لهم الحرية التامة فيما يعتنقون من الديانات. وتبع ذلك أن الإسلام عامل المقيمين فى دياره من غير المسلمين معاملة رفيقة، تدل على ذلك معاهدة الرسول لنصارى نجران وفيها يقول:

" لنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيّعهم (كنائسهم) وكل ما تحت

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٢) سورة يونس الآية ٩٩.

أيديهم من قليل أو كثير ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم دية ولا دم جاهلية. ومن سأل منهم حقا فلهم النَّصَفُ غير ظالمين ولا مظلومين". وظلت هذه الوثيقة فى عهد الرسول تحمل قواعد التعامل للمسلمين مع أهل الكتاب وغيرهم فى جميع الأقطار شرقا وغربا، فمعابدهم تحترم ويؤدون فيها شعائرهم بحرية كاملة. ويؤدى غير المسلمين فى الأمة القادرون على حمل السلاح ضريبة دفاع سميت جزية وكانت لا تزيد سنويا عن دينار، ولم تكن تؤديها امرأة ولا صبى ولا شيخ ولا راهب، وطلب الله من المسلمين أن يعاملوا أهل الكتاب وغيرهم معاملة كريمة.

وطلب الرسول من المسلمين ألا يتصدقوا على فقراء قريش الوثنيين أملا أن تضطرهم حاجتهم إلى الدخول فى الإسلام فنزلت عليه آية كريمة تنهاه عن ذلك، هى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾[1] فواجب الرسول تبليغ الدعوة إلى الإسلام فحسب، أما إسلامهم فمفوض إلى الله وإلى حريتهم واختيارهم لأنفسهم، وأى شىء تنفقونه على المشركين يعود إليكم جزاؤه، والله يعلم أنكم لا تنفقون شيئا إلا لوجه الله وما تنفقوا من شىء إلا ويعود إليكم أجره. وكل ذلك وما سبق من الحرية الدينية تعاليم إسلامية حضارية عظيمة.

الرحمة بالإنسان والحيوان

يقول الله فى سورة الأنعام: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ ﴾[2] فهو دائم الرحمة لعباده لا يشق عليهم فى عبادة ولا فى عمل يؤدونه ودائما يحببهم

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤.

فى الرحمة والرأفة والرفق وأن يشيع ذلك بينهم كما تشيع المودة والأخوة، ويعلن مرارا أن أبواب رحمته مفتوحة للمسلمين بل أيضا للعاصين المذنبين مهما تكن معصيته ومهما يكن ذنبهم كما جاء فى سورة الزمر إذ يقول جل وعز: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ [فى المعاصى والذنوب] لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1] والله يطلب بلطفه من الناس جميعا مسلمين وكافرين ألاَّ ييأسوا من رحمته وغفرانه. ويقول الله فى سورة يونس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فى القرآن تحمل نصحا وإرشادا ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ من الشرك والضلال ﴿وَهُدًى﴾ إلى الطريق الحق ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]. غامرة لهم، وكأن القرآن دواء ربانى يقضى قضاء مبرما على الشرك والضلال مما يجعله بحق رحمة للناس. ويقول الرسول: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة إلى الأرض بين الجن والإنس والبهائم والهوام من الطير والحشرات، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطفً الوحش على ولدها. وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة.

ودعت الشريعة الإسلامية إلى الرحمة بالحيوان فلا يشق عليه الناس فيما يعمل وفيما يحمل. وكان الرسول يتشدد فى الرحمة بالحيوان المستأنس، وينهى أن يناله أى أذى وكان يقول: " عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها ولا سقتها ولا هى تركتها تأكل من خَشاش الأرض أى من هوامِّها وحشراتها (رواه مسلم). وعنه أنه قال: بينما رجل يمشى فى طريق واشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها وشرب ثم

(١) سورة الزمر الآية ٥٣.
(٢) سورة يونس الآية ٥٧.

خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فقال هذا الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى، فعاد إلى البئر، فملأ خفه (حذاءه) ماء، ثم أمسكه بفمه حتى صعد، فسقى الكلب.

فشكر الله له فغفر له وأدخله الجنة (رواه البخارى). وعن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع رسول الله فى سفر، فانطلق لحاجة فرأينا قُبَّرة ومعها فرخان فى أحد الأعشاش، فأخذنا فرخيها، فجاءت فلم تجدهما فجعلت تعرش أى ترتفع وتدنو باحثة عن فرخيها، فقال الرسول: من فجعها فى فرخيها ردوهما إليها، فرددناهما (رواه أبو داود) وبحق سمى الإسلام دين الرحمة.

٤

اخلاقية حضارية

يدعو الله المسلم إلى التمسك بالتربية الأخلاقية الحضارية السديدة التى أودعها له فى القرآن وحثه على استشعارها.

العزة: من ذلك شعور المسلم بالعزة التى منحها الله له قائلا: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] أى جعلهم يعتزون بدينهم وانتصاراته على المشركين كما جعلهم يشعرون بالقوة والمنعة والكرامة والاعتداد بالنفس).

الوفاء بالعقود

يقول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾[2] والعقود تشمل العقود التى يعقدها المسلمون بعضهم على بعض كعقود المعاملات فى البيع

(١) سورة المنافقون الآية ٨.

(٢) سورة المائدة: الآية الأولى

والشراء وعقود الإيجار للمنازل والمزارع وعقود الزواج ، وواجب المسلم إذا تعهد بعهد أن يفى به، ومن ذلك العهد فى العلاقات كعلاقة الزوج بزوجته، وعلاقة الآباء بالأبناء والأبناء بالآباء والأخوة بالأخوات.

الأمانة

فى سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾[1] فمن اؤتمن على أمانة ينبغى أن يردها إلى صاحبها فى موعدها المحدد وألاّ يؤخرها عنه، أما إن جحدها وقال ليس لك عندى مال كان ذلك خيانة، وخيانتها من أكبر الذنوب والآثام. ووصف المسلم بالأمانة من أهم أوصافه، إذ المسلم الحق لا يأكل أمانة لأحد وإن يأكلها تقطّع أمعاء آكلها فى الدنيا ويصلاها نارا حامية فى الآخرة.

الحق

سمى الله نفسه فى سورة الأنعام باسم الحق[2] أعلاه بين المسلمين لكى يعتنقوه فى معاملاتهم فى حقوق أفراد الأسرة وفى حقوق الأفراد عامة، وتسمى عبادات الله حقوقا له من الصلاة والصيام والزكاة والحج، وبالمثل تسمى عقيدة الإسلام حقوقا له من الإيمان به بالحساب والجزاء فى اليوم الآخر والإيمان بالملائكة والرسل والكتب السماوية، وينوه الرسول بكلمة الحق يقذف بها مسلم فى وجه سلطان ظالم لا يخاف منه ولا من ظلمه وبطشه.

الصدق

حث الله عليه فى القرآن مرارا منوّها به، وهو يشمل الصدق مع الله فى الوفاء له بالإيمان المخلص بذاته وبالملائكة والرسل والكتب السماوية واليوم الآخر مع أداء الفروض من الصلاة والصيام والزكاة والحج، والصدق مع الزوجة

---

(١) سورة النساء الآية ٥٨.

(٢) سورة الأنعام الآية ٦٢.

والأبناء فى أداء مطالبهم، والصدق مع غيرهم فى جميع الالتزامات والعقود والمعاملات، ويقول الرسول: إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا.

النصيحة

قال رسول الله - ﷺ -: الدين النصيحة، فقال له الصحابة: لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم (رواه مسلم) والنصيحة لله وصفه بما يستحق وتعظيمه، وطاعته وعمل ما يحبه ويرضيه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه. والنصيحة لكتابه إحسان تلاوته وفهم معانيه والإخلاص لأوامره ونواهيه. والنصيحة لرسوله اتباع شريعته وسنته وتعاليمه والتخلق بأخلاقه. والنصيحة لأئمة المسلمين عونهم على ما ينهضون به من مصالح الأمة. والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة على ضعفائهم من الشيوخ واليتامى والنساء، والرحمة بفقرائهم ومد يد البر لهم والمساعدة.

الحلم

هو عفو وصفح عن عدوان السفهاء، ولا يغضب الحليم إذا تناوله شخص بقدح أو ذم واشتهر كثيرون من المسلمين بالحلم والأناة وضبط النفس فى مقدمتهم الرسول، وكان ربما سمع كلمة نابية من أعرابى فابتسم ولم يرد عليها بل حاول أن يسترضيه إذا قالها فى قسمة غنيمة، ومن حلماء المسلمين الأحنف ابن قيس مستوطن البصرة قال له شخص إن قلت فىَّ كلمة لتسمعنَّ عشرا، فقال له الأحنف: لكنك لو قلت فىَّ عشر كلمات لم تسمع منى واحدة.

التوسط

يمدح الله من يتوسطون فى الإنفاق بين الإسراف والشحّ الشديد قائلا:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾[1] والإسراف: تجاوز القدر الكافى

---

(١) سورة الفرقان الآية ٦٧.

فى الإنفـاق، فـلا يسـرف فـى الإنفـاق إسـرافا يـؤدى إلى ضيـاع مالـه فيحـاول الحصول عليه بطرق سيئة، وهو مذموم فى نفســه وفيمـا يـؤدى إليـه، والإقتـار الشح الشديد على الزوجة والأولاد فى الإنفاق عليــهم، وضـرره لا يتوقـف عنـد حد فقد يفسد الزوجة والأبناء، وواجب الآباء التوسط فى الإنفاق بين الإسـراف والبخل الشديد وكنز المال.

العمل الصالح

يقول الله: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(١)

والعمل الصالح هو العمل الطيب مما دعا إليه القرآن الكريم مما يتصل بعبادة الله وبحسن الخلق وبر الجماعة. والعمــل الصـالح فـى العبـادة هـو أداء المؤمـن للفرائض أداء صحيحا دقيقا، أما العمــل الصـالح المتصـل بحسـن الخلـق فمثـل الشجاعة والكرم والحلم والوفاء بالعهد والمواساة، والصـدق والنصح والعفـاف. وأما العمل الصالح المتصل بالجماعة فمنه البر بالفقراء والمساكين واليتــامى وكـل معروف حتى الكلمة الطيبة يقولها لأخيه والسلام ورده وحتى الوجـه البشـوش المستبشر فى اللقاء.

(١) سورة النحل الآية ٩٧.